١٤

ابن بطوطة فى ركب العراق

تنظيم ركبان الحجاج

بعد أن شرحنا أحوال الشرق الإسلامى فى أيام رحلة ابن بطوطة نتابع سيره مع الركب العراقى من مكة إلى ما وراء النهر ، ونردِّد ما ذكرناه فى الفترة الراهنة عن حرص ابن بطوطة على إظهار الجوانب الطيبة مما يرى ومبالغته فى تنميق ما يرى من الصور . ومن ذلك قوله فى وصف هذا الركب العراقى : « وفى هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة ، وأنواع الأطعمة والفواكه ، وهم يسيرون بالليل ، ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات ، فترى الأرض تتلألأ نوراً ، والليل قد عاد نهاراً ساطعاً! » (ص١٦٩).

والمراد بالقطار هنا صفوف الجمال المتتالية ، أما المحارات فيراد بها الجمال التى تحمل المحامل المزدوجة التى ذكرناها آنفاً .

وهذه الصورة تعطينا فكرة عن تنظيم الركبان ، وكيف كان يصحبها التجار ومعهم البضائع والأقوات من كل صنف ، فإذا حطَّت القافلة فى موضع نُصبت السوق وقام البيع والشراء ، أما السير بالليل فكان هو القاعدة فى أوان الصيف واشتداد الحر ، وكانت العادة أن يضاء الركب بالمشاعل ؛ حتى تُتبين ضخامته فتتحاماه اللصوص ، ثم إن الضوء كان يضفى على الرحلة أنساً كانت فى حاجة إليه .

وعندما يخترق ركب ابن بطوطة أرض نَجْد ؛ نجد برهاناً ناصعاً على

حقيقة كشفت عنها أبحاثنا خلال السنوات الأخيرة ، وهى أن نَجْدًا بصفة خاصة ، وجزيرة العرب بصورة عامة كانت - فيما مضى من الأعصر - أوفر ماء مما هى عليه اليوم ؛ ففى كتابات عَرَام بن الإصبع والسَّكونى - ومَنْ نَقل عنهما مثل أبى عبيد البكرى - ذكر لموارد مائية كثيرة جدًّا فى شبه الجزيرة ، ما بين آبار وجِبَاب ومياه سائحة بركاً من تجمُّع ماء المطر ، تغذِّيها عيون ماء تحتية فى بعض الأحيان.

وقد تحقَّقنا من ذلك بدراساتنا لعصر البعثة النبوية وأحداث صدر الإسلام ، ثم توالت البيِّنات على ذلك من كتب الرحَّالة والجغرافيين حتى أيام الإدريسى، وها نحن أولاء فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى والماء وافر فى نَجْد بصورة تستوقف النظر .

يقول ابن بطوطة : « ثم رحلنا إلى وادى العروس ودخلنا أرض نَجْد ، وهو بسيط من الأرض مَدُّ البصر ، فتنسَّمنا نسيمه الطيِّب الأَرِج ، ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يُعرف بالعسيلة ، ثم رحلنا عنه ، ونزلنا ماءً يُعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ، ثم رحلنا إلى ماء يُعرف بالقارورة ، وهى مصانع مملوءة بماء المطر ؛ مما صنعته زبيدة بنت جعفر رحمها الله ، وهذا الموضع وسط أرض نَجْد فسيح طيب النسيم ، صحيح الهواء ، نقيُّ التربة، معتدل فى كل فصل ؛ ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر ، وفيه مصانع للماء ربما جفَّت، فحفر عن الماء فى الجفار » (ص ١٦٩) .

وهكذا لا يزال الركب ينتقل خلال نَجْد من موضع ماء إلى موضع ماء حتى يصل إلى مشارف العراق ، فيمرَّ بقرى صغيرة حتى ينتهى إلى القادسية موضع المعركة المشهورة بين العرب والفرس ، ثم يصل الركب إلى النجف أو مشهد النجف ، وفيه قبر على بن أبى طالب - رضى الله عنه - بطل الإسلام وخطيبه وبليغه ورابع الخلفاء الراشدين .

ووصف ابن بطوطة للنجف يدل على ذكاء ودقة ملاحظة ؛ فقد لاحظ أن مدخل البلد غير جدير بأن يكون مدخلاً لموضع مقدَّس كهذا ، فإن الذى يستقبلك ساعةَ دخولك سوق البقَّالين والطبَّاخين والخبَّازين ، ولم تكن هذه بأجمل أجزاء المدن فى الماضى ؛ نظراً لنفايات البقَّالين وزهومة المطابخ وأفران الخبَّازين .

أما أجمل أبواب البلد فكان باب الحضرة حيث روضة على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - « وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشانى، وهو شبه الزليج عندنا - أى : فى المغرب - لكن لونه أشرق ونقشه أحسن» .

ويصف ابن بطوطة النجف وصفاً دقيقاً نخرج منه بأن صورة هذا المزار الجليل لم تتغير كثيراً من ذلك الحين ، وأن توقير الناس له كان عظيماً على طول الأعصر ، ولكنه ينفرد بذكر أشياء جديدة مثل قوله إن بركة ليلة السابع والعشرين من رجب - وهى ليلة المحيا - تعمُّ المقعدين الذين يقضون الليلة هناك ، فلا يصبح الصباح إلا وهم واقفون ، وقد زال عنهم ما بهم، وهو يصف أهل النجف بالفضل وحسن العشرة والمهارة فى التجارة .

وإليك فقرة من كلام ابن بطوطة فى وصفه للطريق من بغداد إلى الموصل يتحدث فيها عن النفط وآباره :

« ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يُعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء منها عيون تنبع بالقار ، ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون مقيلاً رطباً وله رائحة طيبة ، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضاً قارًا.

وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا

عليها النار فتنشّف النار ما هنالك من رطوبة مائية ، ثم يقطّعونه قِطَعاً وينقلونه .

وقد تقدَّم لنا ذكر العين التى بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ، ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ، ووصلنا بعدهما إلى الموصل » .

واسط

ثم ينتقل إلى واسط ، وهو معجب بها وببساتينها وأشجارها وعلمائها، وحديثه طويل عن مدرسة تجويد القرآن فيها ، يقول : « عَمَرَها الشيخ تقيُّ الدين عبد المحسن الواسطى ، وهو من كبار أهلها وفقهائها ، ويعطى كلَّ متعلم بها كسوة فى السنة ، ويُجرى له نفقة فى كل يوم ، ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة ، وقد لقيته ، فأضافنى وزوَّدنى تمراً ودراهم».

مزار أبى العباس أحمد الرفاعى ورواق الرفاعية

وعندما أقامت القافلة خارج واسط ثلاثة أيام أتيحت لابن بطوطة فرصة لزيارة قبر الولىّ أبى العباس أحمد الرفاعى ، وهو بقرية تُعرف بأم عبيدة على مسيرة يوم واحد من واسط ، فطلب من الشيخ تقىّ الدين أن يرسل معه أحداً ، ليزور الولىَّ ، ويشهد أعمال الرفاعية .

قال : « وصلنا ظهر اليوم الثانى إلى الرِّواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء، وصادفنا قدوم الشيخ أحمد كوجُك حفيد ولىّ الله أبى العباس الرفاعى الذى قصدنا زيارته ، وقد قدمَ من موضع سُكْنَاه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جدِّه وإليه انتهت الشياخة بالرواق .

ولما انقضت صلاة العصر ضُربت الطبول والدفوف ، وأخذ الفقراء فى الرقص ، ثم صلوا المغرب ، وقدموا السماط ، وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر ، فأكل الناس، ثم صلوا العشاء الآخرة ، وأخذوا فى الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جدِّه المذكور .

ثم أخذوا فى السَّماع ، وقد أعدُّوا أحمالاً من الحطب ، فأجَّجوها ناراً ،

ودخلوا فى وسطها يرقصون ، ومنهم من يتمرغ فيها ، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفأوها جميعاً.

« وهذا دأبهم ، وهذه الطائفة الأحمدية مخصَّصون بهذا ، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة ، فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه » (ص١٨٠)، وبهذه المناسبة ينتقل ابن بطوطة إلى حديث قوم آخرين من اللاعبين بالنار وآكليها قرب دهلى فى الهند .

البصرة

ثم ينتقل إلى البصرة ويحدثنا عما رآه فيها ، وهو على عهده يعجبه كل شىء ويمدح كل شىء ، ولا يكاد ينتقد شيئاً ، وتستوقف نظره ثمورها وكثرتها وامتيازها ورخص أسعارها .

ويضيف أن البصرة كانت مقسَّمة فى أيامه إلى ثلاث محلَّات : مَحِلَّة هزيل (وهم عرب) وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير ، « وهو من الكرماء والفضلاء ، أضافنى وبعث إلىَّ بثياب ودراهم » ، والمحلَّة الثانية محلَّة بنى حرام (وهم من العرب أيضاً) ، والمحلَّة الثالثة محلَّة العجم، وكبيرها « جمال الدين بن اللوكى » (ص ١٨٢).

وقد دهش ابن بطوطة لكثرة لحن خطيب البصرة ، وتحدَّث فى ذلك إلى صاحب له فقال له : « إن هذا البلد - أى : البصرة - لم يبقَ به من يعرف شيئاً من علم النحو ، وهذه عبرة لمن تفكَّر فيها ، سبحان مغيِّر الأشياء ومقلِّب الأمور ! هذه البصرة التى إلى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ! ».

ويحرص ابن بطوطة على ذكر مشاهد البصرة ومزاراتها ، وهى كثيرة .

وبعد أن يُلِمَّ بذكر عبادان يزور رابطة على البحر تُعرف بالنسبة للخضر وإلياس ، وبإزائها رابطة يزورها مرة فى الشهر عابد متأبد بنفسه فى عبادان؛ ليتزود منها لشهر ، وقد أعجب ابن بطوطة بهذا العابد حتى فكر فى أن

يقضى بقية عمره فى خدمته ، قال : « وهجس فى خاطرى الإقامة بقية العمر فى خدمة ذلك الشيخ ، ثم صرفتنى النفس اللجوج عن ذلك » (ص ١٨٦) .

وأراد ابن بطوطة أن يزور بغداد ، وله هنا ملاحظة طيبة يقول فيها : «ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجُول ، ومن عادتى فى سفرى ألاَّ أعود على طريق سلكتها ما أمكننى ذلك ، وكنت أحب قصد بغداد العراق، فأشار علىَّ بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللور ثم إلى عراق العجم ، ثم إلى عراق العرب ، فعملت بمقتضى إشارته» .

وهكذا ترى كيف كانت أحسن الطرق من البصرة إلى بغداد لا تمر وسط بلاد العراق؟ وإنما يتوجه الناس إلى بلدة لور عاصمة بلاد لورستان - وهى الأهواز الحالية تقريباً - ثم يمرون بعراق العجم ثم عراق العرب وهى بلاد الجبال .

وكانت طريقه من البصرة إلى ماجول إلى رامز ، وهنا يقول : « فى كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء ، وحلواؤهم من رُبِّ العنب مخلوطاً بالدقيق والسمن ، وفى كل زاويةٍ الشيخُ والمؤذِّنون والخادم للفقراء ، والعبيد والخدم يطبخون الطعام » .

مثال من دقة تنظيم بعض الزوايا وإكرام النزلاء فيها

ثم يصل إلى تَسْتُر ، وكان نزوله فيها فى مدرسة الشيخ شرف الدين موسى « وله مدرسة وزاوية خُدَّامها فتيان ، وله أربعة أولاد قسَّم عليهم إدارة الزاوية والمدرسة : فواحد منهم مكلَّف بالأوقاف ، والثانى يتولى النفقات ، والثالث خديم السماط بين أيدى الواردين ومرتِّب الطعام لهم ، والرابع موكَّل بالطبَّاخين والسَّقَّائين والفرَّاشين » . قال : « فأقمت عنده ستة عشر يوماً ، فلم أَرَ أعجب من ترتيبه ولا أرغدَ من طعامه ؛ يقدم بين يدى الرجل ما يكفى الأربعة من الأرز المفلفل المطبوخ فى السمن والدجاج المقلى ، والخبز واللحم والحلواء » (ص ١٨٨) .

فهل رأيت نظاماً هو أكمل من هذا فى رعاية أبناء السبيل ؟ لقد كنا نتصور أن أمر الزوايا لا يخرج عن أنها كانت ملاجئ تقدِّم للمسافر الغريب مجرد المأوى ، وبالفعل كان الكثير من الزوايا لا يقوم بأكثر من ذلك ، ولكن ها نحن أولاء نرى كيف كانت تلك الزوايا دور ضيافة حقيقية تُنفَق عليها الأموال الطائلة ويُقدَّم فيها للنازل الغريب الطعام الوافر بل الفاخر ! وها نحن أولاء هنا أمام أسرة نذرت أموالها وجهود أفرادها للقيام بذلك العمل الجليل ، وكل ذلك حِسْبَةً لله تعالى دونَ نظرٍ إلى مال أو جزاء؛ فهذا ابن بطوطة يحدثنا عن اجتهاد هذه الأسرة – الأب وأولاده – فى خدمة الغرباء ، وكيف تقاسموا العمل فيما بينهم لكى يقوموا بإكرام النازل الغريب على أحسن ما يكون الإكرام ؟ وماذا نريد منهم أن يقدِّموا فوق ما ذكر ابن بطوطة أنهم قدَّموه إليه ؟ ماذا بعد ذلك الطعام الطيب الوافر الذى يتكلف المال الطائل ؟

ولم تكن هذه الدار فريدة فى بابها ، بل كان هناك أمثالها كثير ، وابن بطوطة نفسه يحدثنا عن غيرها وعما لقى فيها من إكرام وعناية ، وكل ذلك قام به المسلمون تنفيذاً لما نَصَّ عليه القرآن الكريم من ضرورة رعاية ابن السبيل والقيام بحقه .

وابن السبيل هو المسلم الغريب عن داره ؛ لأنه على سفر ، وهو يحتاج إلى الإكرام والرعاية والطعام والشراب والمأوى ولم يجعل القرآن قيام المسلم بذلك الأمر فضلاً منه على غيره ، بل جعله قُربةً من القُربات التى يتقدم بها المسلم إلى ربه ، وهى فى حساب حسناته ؛ لهذا كان اجتهاد أولئك الناس فى إقامة الزوايا والرُّبُط والنُّزُل والإنفاق عليها فى سخاء ، والقيام بخدمة أهلها على النحو المحكم الذى رأيناه فى حديث ابن بطوطة.

وهذا جانب يسير من جوانب فضل الإسلام على الناس وإنسانيته التى تبلغ أقصى الحدود ، وهى التى جعلت عالم الإسلام فى العصور الوسطى عالم أخوَّة ومحبة وتعاون ، وجعلت منه – بحقٍّ – داراً لكل المسلمين .

* * *